

مدينة تلمسان ودورها الحضاري في المغرب منذ القرن السادس إلى نهاية القرن التاسع الهجري

صالح محمد فياض أبو دياك
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة المشارك
بقسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة اليرموك

ملخص البحث

تناول موقع المدينة وأهميتها بين المدن المغربية، وتعرض إلى ما بها من منشآت عمرانية بحسن بنائها واناقتها من قصور ومساجد ومدارس وتعرض البحث إلى المتنزهات الموجودة بها وإلى الأضرحة ومكانة أصحابها عند أهل المدينة، لما قاموا به من أعمال جليلة في حماية الناس من الأفكار الدخيلة، وفساد الخلق، وتدنيس النفوس، حتى أصبحت مزارات عند أهل تلمسان يفدون إليها زرافات ووحداناً. وتعرض البحث للمدارس وطرق التدريس وأهدافها، وإلى رجال الفكر والعلم ممن وفدوا إلى المدينة من أهلها. وأشار البحث إلى التجارة وتأثيرها على السكان، وإلى الأزمات الاقتصادية الناجمة عن الحصار، وما أصاب الناس من جوع وغلاء أسعار. ونوه البحث بإعجاب المغاربة والجزائريين على الخصوص بها، الذين سموها بـ (لؤلؤة الجزائر) وما زالت هذه التسمية دراجة على الألسن إلى يومنا هذا.

مدينة تلمسان ودورها الحضاري في المغرب منذ القرن السادس إلى نهاية القرن التاسع الهجري

تعود أهمية مدينة تلمسان إلى عصور خلت منذ أيام الرومان وفي العهود الإسلامية المبكرة، حيث كانت كما يقول البكري عنها : - (.. مملكة زناتة وموسطة قبائل البربر ومقصد تجار الآفاق، نزلها محمد بن سليمان بن عبد الله بن علي بن أبي طالب ومن ولده عيسى أبو العيش بن إدريس بن محمد بن سليمان الذي بنى جراوة وكان أميرها..)^(١) وقام الأمير يوسف بن تاشفين (٤١٠-٥٠٠ هـ = ١٠١٩-١١٠٦ م) ببناء مدينة تافروزت الحديثة في مكان المعسكر الذي أقامه لحصار مدينة أجادير حوالي ٤٧٣=١٠٦٩-١٠٧٠ م) وشكلت المدينتان مدينة تلمسان التي تعد مركزاً هاماً من مراكز الثقافة في المغرب الأوسط^(٢) تضاهي مدينة فاس في المغرب الأقصى، خاصة عندما أصبحت قاعدة ملك بني زيان من سنة ٦٢٢ هـ-٦٣٢ هـ=١٢٥٥-١٢٣٤ م حيث اتصلت حضارتها بالحضارة الأندلسية، وهي دار للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك^(٣)، إلى جانب إنها كانت مأوى للتصوف ورجاله، ومنها خرج رجال افذاذ مارسوا السياسة إلى جانب التعليم، أمثال محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني المعروف بابن مرزوق الذي كان حاجباً للسلطان أبي الحسن المريني الذي ألف له كتاباً أسماه بـ (المسند الصحيح الحسن في ذكر مولانا أبي الحسن)^(٤). وإلى جانب ذلك كان من أكبر محدثي المغرب في القرن الثامن للهجرة.

وقبل الحديث عن المدينة ودورها، لا بد لنا من تفسير اسمها الذي يتكون من كلمتين بربريتين (تلم) و(سان) ومعناها تجمع اثنين وهما البر والبحر، وتنطق عادة بكسر التاء واللام وسكون الميم، وبعضهم يقول تلمسين بكسر التاء وسكون اللام وفتح الميم وهي صيغة جمع للكلمة البربرية تلمسان (Tilmas) الغدير أو النبع بمعنى أنها مدينة الينابيع^(٥) وهذا المعنى ينطبق عليها أو على ما حولها لكثرة (الينابيع المتفجرة فيها وفي الأماكن المجاورة لها، التي تنساب في كل اتجاه، والمدينة القديمة تقع على بعد مئات الأمتار من مدينة تافروزت الحديثة وتسمى بـ (أكادير)^(٦) بالجيم المصرية وتعني الجرف أو الهضبة وتتفق هذه التسمية مع ما ورد ذكره في القرآن الكريم في الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام والخضر الذي يشير إلى الجدار أو مدينة الجدار.

في هذا الصدد يقول القزويني، صاحب كتاب آثار البلاد وأخبار العباد : - (... ذكروا أن القرية التي ذكرها الله تعالى في قصة الخضر وموسى (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية

استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدوا فيها جداراً يريد أن ينقض فاقامه، قال لو شئت لتخذت عليه أجراً^(٧)، قيل أنه كان جداراً عالياً عريضاً مائلاً فمسحه الخضر عليه السلام بيده فاستقام. وحدثني بعض المغاربة أنه رأى في تلمسان مسجداً يقال له مسجد الجدار، يقصده الناس للزيارة...^(٨) ولعل ما قصده القزويني من روايته، هو ابراز القيمة الدينية للمدينة.

وصفوة القول أن لتلمسان أسماء شتى أطلقت عليها عبر القرون أن الرومان استعمروا المغرب، واختطوا قبل أكادير في موضع تلمسان القديمة مدينة سموها بوماريا (Pomira) ومعناها مدينة البساتين، وكانت في أول نشأتها معسكراً رومانياً، وقد بنى الرومان قناة لجلب المياه العذبة إليها من الينبوع المسمى بالوريط إلى بوماريا، وما زال الناس إلى الآن يسمون هذه الساقية ساقية النصراني^(٩). وقد ذكرها ابن خميس بقوله :-

لساقية الرومي عندي مزية وإن رغمت تلك الرواسي الرواشح^(١٠)

وتعد مدينة تلمسان جامعة لثلاث مدن بنيت في فترات متعاقبة، أجادير في الشرق التي يقال أنها بنيت في عهد المولى ادريس الأول على أنقاض معسكر روماني حوالي ١٧٤هـ= ٧٨٩م^(١١)، ومدينة تافرزت في الوسط، وهي تسمية بربرية تعني المعسكر والتي بنيت في عهد الأمير يوسف بن تاشفين أثناء حصاره لمدينة أجادير حوالي ٤٧٣هـ= ١٠٦٩-١٠٧٠م، والمنصورة أو المحلة المنصورة أو تلمسان الجديدة في الغرب التي بنيت في أيام الأمير يوسف بن يعقوب المريني في شهر شعبان سنة ٦٦٨هـ= ١٤٩٩م/ في أثناء حصاره للمدينة لمدة ثماني سنين، ولم يبق الآن من هذه المدن الثلاث إلا المدينة الوسطى تافرزت المسماة بتلمسان والتي كانت عاصمة الزيانيين^(١٢).

وتقع المدينة على ارتفاع ثمانمائة متراً عن سطح البحر، وهي واقعة في سفح مرتفعات جبلية يحدها جنوباً غابة كثيفة من الصنوبر، ومن الشمال سهل الحناية الواسع المتصل من ناحية الغرب بسهل مغنية، ويحجب الأفق عن المدينة على مسافة ثلاثين متراً من الشمال والشمال الغربي بسبب مرتفع سرارة، حيث يلاحظ الرائي جبال فلاوس، وسفيان وغيرهما، وفي الشمال الشرقي مرتفعات سبعة شيوخ وتالسة، وتحجري على منحدرات جبال تلمسان عدة اودية منها، نهر تافنة، ونهر الشولي، ونهر أسر، ونهر الطفيف، إلى جانب الشلالات التي تنحدر من جبالها وتتمتع تلمسان بمناخ صحي منعش في معظم أيام السنة، وقد تشتد فيها وطأة البرد بعض السنين، وتسقط الثلوج التي تكون الأنهار صيفاً لتسقي البساتين^(١٣) ويرف تلمسان

غني بأشجار الفاكهة المتنوعة والزيتون والمناظر الخلابة.

ويشير البكري صاحب كتاب (المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب) المتوفى سنة ٤٨٧هـ=١٠٩٤م إلى علوها فيقول :- " ... مدينة مشهورة في سفح جبل شجر الجوز... " (١٤).

أما صاحب الإستبصار فيشير إليها قائلاً من عيون تسمى بوريط بينها وبين المدينة ستة أميال، ولها نهر كبير يسمى سطيف، وكانت تلمسان دار مملكة زناتة وحواليها قبائل من زناتة وغيرهم من البربر.. (١٥).

ويصفها أبو الفداء اسماعيل بن محمد بن عمر المتوفى سنة ٧٣٢هـ=١٢٣١م في كتابه (تقويم البلدان) :- "مدينة مشهورة في سفح جبل.. وماؤها مجلوب من عين على ستة أميال.. وهي قاعدة مملكة ولها حصون كثيرة وفرض عديدة أشهرها هنين، وهران... " (١٦).

ويصفها ابن الخطيب في عبارات مسجوعة، فيقول :- "تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووضعت في موضع شريف.. وهواها المقصود فيها فريد، وهواؤها المدود صحيح عتيذ، وماؤها برود صرير، حجبته يد القدرة عن الجنوب، فلا تحول فيها ولا شحوب.. (١٧)

وزارها الحسن الوزان في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، فذكر اتساعها بقوله:- "تلمسان مدينة كبيرة وعاصمة المملكة لا يذكر التاريخ اسم مؤسسها.. إلى أن يقول:- وعندما حكمت أسرة بني عبد الواد توسعت تلمسان حتى أنها أصبحت تحوي ستة عشر ألف أسرة في عهد الملك تاشفين" (١٨).

وامتازت المدينة بكثرة وتعدد أنواعها واختلاف أشكالها فهذه قصور ومدارس مؤنقة ومساجد فسيحة مكسوة بد (الزلاج المنقوش) على الجبس منها ما بقي إلى الآن، ومنها ما اندثر (١٩).

ومما يذكر أن العمران التلمساني خاصة والمغربي عامة، عبارة عن حشوات مربعة تزينها زخارف هندسية متشابكة، وأشجار نخيلية وتزويق في أسلوب مغربي إسباني، حمله للمغرب فنانون اندلسيون.

ويذكر أن السلطان أبا تاشفين الزياني كان من أشد ملوك هذه الدولة عناية وولعاً بهذا المعمار، حيث قام بتأسيس الكثير من المعالم وأغلبها اليوم اطلالاً دراسة منها مدينة (تاميزدكت) بشمال الوادي الكبير ولعله وادي سومام-قرب محطة السكة الحديدية من مدينة القصر، وكذلك حصنهم القديم في الجبل مقابل مدينة وجدة، حيث امتنع به جدهم يغماسن في حربة مع السلطان المريني أبي سعيد عثمان.

وعرفت المدينة بكثرة أبوابها، وتضاربت الأقوال في عددها، فالبكري يذكر أن للمدينة خمسة أبواب، باب الحمام، وباب الخوخة وباب وهب في الجنوب، وباب العقبة في الشرق، وباب أبي قرة في الغرب، إلى جانب آثار الأمم السابقة (٢٠).

وأشار يحيى بن خلدون إلى نفس العدد فذكر باب الجياد قبله، وباب العقبة شرقاً، وباب الحلوي، وباب القرمدين شمالاً، وباب كشوط غرباً، وأشار إلى سورها الذي يجمع المدينتين أغادير وتافرزت التي أصبحت في زمنه أكبر من الأولى (٢١). وأشار أبو الفداء في كتابه تقويم البلدان إلى أن لها ثلاثة عشر باباً، لكنه لم يذكر أسماءها ولم يحدد مواقعها، ولعل هذا القول مبالغ فيه لأن الحميري صاحب الروض المعطار أشار إلى نفس العدد الوارد ذكره عند يحيى بن خلدون والبكري مع تحديد الموقع والأسماء مثلما ورد عند الأخير (٢٢).

وأشار الإدريسي إلى السور الذي ضم المدينتين في مدينة واحدة إلى جانب قلعة المشور المقامة في وسط المدينة وبداخلها دار للسكنى ومسجد جامع (٢٣).

وبعد الحصن والمشور من أقدم مباني تلمسان. وموقع المشور الآن هو شارع فرنسا سابقاً الذي يشق تلمسان في الوسط من الشمال إلى الجنوب وينتهي إلى الساحة المسماة الآن بساحة (المقدم فرج) وفيها تدخل إلى المشور الذي تم بناؤه سنة ٧٦٥هـ / ١١٤٥م زمن أبو عبد الله محمد المنصور بن أبي زكريا أبي يحيى الحفصي - وهم فرع من الموحيدين - في الموقع الذي أقام فيه يوسف بن تاشفين فسطاطة حينما كان محاصراً لتلمسان العتيقة المسماة بـ (اجادير)، واتخذة امراء الدولة الموحدية والزبانية بعدهم مقراً ومسكناً لهم، وهو يعد آية من آيات الفن المعماري أيام الموحيدين، ويتسم بالروعة والأصالة وحسن التصوير (٢٤).

وعليه كانت المدينة تعد من أهم مراكز الفن المعماري في المغرب الأوسط فبالى جانب ما ذكر، هناك المتنزهات التي إزداد عددها زمن السلطان أبو تاشفين منها متنزه النزهة بمبانيه الجميلة والمسمى أحياناً (بمباني البركة) المقامة في بستان جميل خارج المدينة، يضاف إليه المتنزهات التالية :-

وادي صفيف، وكدية العشاق، وغدير الجورة، وجبل الإدريسي، وساقية الرومي التي سبق ذكرها. كل هذه المتنزهات اكسبت المدينة بهاءً وجمالاً وجعلتها موئلاً للزوار، وإلى جانب المتنزهات وجدت احواض وصهاريج للمياه، منها الصهريج الذي ما زالت آثاره ماثلة إلى الآن، والذي يقع غرب المدينة، يبلغ طوله مائتين وعشرين متراً، وعرضه مائة وخمسين متراً في عمق ثلاثة أمتار، وقد استغرق انشاؤه حوالي اثني عشر عاماً من سنة

٧١٦-٧٢٨هـ=١٣١٣-١٣٣٦م. حيث كان يستخدم لسباق الزوارق والقوارب في الأعياد والمواسم والإحتفالات، واستخدم قسم من مياهه للشرب والري.

ومن ملاعب رياضة الفروسية في المدينة الملعب الكبير المقام خارج المدينة والمعد لسباق الخيول، وفيه يقول ابو عبد الله بن محمد بن جابر بن أحمد بن ابراهيم بن حسان القيسي المولود بتونس سنة ٦٧٣/١٢٧٤م والمتوفى بمدينة وادي آش في الأندلس سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م إثر إصابته بمرض الطاعون يقول :-

وملعب الخيل الفسيح مجاله
فبحلبة الأفراس كل عشية
أجلى النواظر في عتاق المحفل
لعب بذاك المتسهل (٢٦)

واستعانت تلمسان أيام السلطان ابي حمو الأول وابنه الأمير تاشفين بالصناع والفعلة من أهل غرناطة أيام السلطان أبي الوليد اسماعيل الثاني بن يوسف وهؤلاء مهروا في مختلف الميادين من صناعة البناء، وهندسة البساتين، وبناء المنازل، مما جعلهم محط أعجاب التلمسانيين وغيرهم من المغاربة.

ويشير ابن خلدون الى اهميتها بين المدن المغربية فيقول :- "...واتخذها آل زيان داراً للملكهم وكرسياً لسلطانهم، فاختطوا بها القصور المؤنقة والمنازل الحاملة، واغترسوا الرياض والبساتين، واجروا خلالها المياه، فاصبحت اعظم امصار المغرب، ورحل الناس إليها، ونفقت بها اسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء، واشتهر فيها الإعلام، وضاهت امصار الدول ال إسلامية والقواعد الخلافية..." (٢٧).

أما المشور، فقد اتخذهُ بنو زيان مقراً ومسكناً، فكان فيه مساكنهم ومسجدهم ومستودعاتهم، في بيوته بقيم الحشم وينزل الأمراء الأجانب وبين ارجائه تنظم حفلات الإستقبال الكبرى.

ويعيش الأمير الزناتي ضمن مراسم معينة، يستقبل فيها رجال البلاط الذين ينظمون شؤون الدولة حسب قواعد معروفة، يساعدهم في ذلك رئيس البلاط المسمى بالقائد أو المزوار، والمكلف بتحديد الرواتب حسب الكفاءة والدرجة الوظيفية وقيادة الجيش في الحرب.

ويليه الكاتب الأول الذي يرد على الرسائل باسم الأمير، والخازن يتسلم مال الأمير وكل ما يمت بخزينة الدولة، والصراف الذي يوقع على الحوالات الصادرة من الخزينة لأعطاء الموظفين في المشور ما يحتاجون اليه من مال، وما تحتاجه الإسطبلات من علف وغيره.

وهناك وظائف أخرى تدرج في الأهمية حسب السلم الوظيفي، كوظيفية رئيس

الإسطبلات، وقائد الحرس، ورئيس التشريفات الذي لا يظهر إلا في مراسم الإستقبال (٢٨).
ويقوم على خدمة السلطان في القصر العديد من الخصال الذين يقومون على حراسة حريمه
وتلبية حاجاته وحاجاتهم، ويتألق سلاطينهم في البستهم وركائبهم، فكان يركب السلطان
حصانه ويتحول بين الناس، ولكن في حالة الحرب، يعلن النفير فيأتيه عدد من الرجال من
مختلف القبائل، فيدفع لهم أجورهم، وعند انتهاء المعركة يعودون ادراجهم إلى أماكن سكنهم (٢٩).
ووجد في تلمسان منذ أيام الأدارسة عدد كبير من مختلف المساجد، وأقدم مسجد فيها
مسجد اكادير الذي انشئ سنة ١٧٤هـ / ٧٩٠م في عهد الإمام ادريس الأول، واعيد بناؤه مرة
أخرى زمن ابنه ادريس الثاني، الذي امر بوضع منبر له نقش عليه :- (هذا مما أمر به الأمام
ادريس بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم اجمعين، في شهر محرم سنة ١٩٩هـ (٣٠).
وللجامع مئذنة تعود قاعدتها إلى عهد الأدارسة وأعلها إلى العهد الزياني، وبنى الأمير
علي بن يوسف بن تاشفين المسجد الكبير فيها عام ٥٣٠هـ / ١١٣٥م وعمل الموحدون على
محو اسمه إلا أن التاريخ المذكور دل على أن الجامع شيد في عهده وللمسجد قبتان الأولى
يرجع بناؤها إلى العهد المرابطي والثانية إلى العهد الزياني والإثنتان متساويتان بالزخرف
والزينة أما مسجد سيدي ابي الحسن الذي شيد سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م، فقد نقش عليه كتابتان
احدهما منقوشة على يمين المحراب ويساره، والأخرى على لوحة من الرخام مرصعة في الجدار
الغربي، جاء فيها :- "بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم
وتسليماً، بنى هذا المسجد الأمير أبو عامر إبراهيم بن السلطان أبي يحيى يغمراسن بن زيدان
في سنة ست وتسعين، وستمائة من بعد وفاته رحمه الله".
ومن المفترض أن يسمى المسجد الذي بناه في قرية العباد سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م باسمه،
لكنه سماه باسم العالم ابي الحسن بن يخلف التنسي تكريماً له، وقد حول زمن الاحتلال
الفرنسي إلى مخزن ثم إلى مدرسة ثم إلى متحف، ومن ابرز الجوانب المعمارية فيه السواري
والتيجان والمحراب والسقف والمئذنة، فالسواري منحوتة من رخام شبه شفاف يستخرج من
منجم عين (ثاقبات) الواقع بالقرب من تلمسان، ويعلو هذه السواري تيجان رائعة الجمال
تحتوي على قسم سفلي اسطواني الشكل ومزينات بتعرجات، وعلى القسم العلوي جسم
متوازي السطوح مؤنث بأوراق مختلفة الشكل وثمر الصنوبر محيطة بعصابة أو سيعفة وفوق
التاجين اللذين يعلوان ساريتي المحراب، نقش يدعو المسلمين إلى الصلاة (٣٢)، فقد جاء في
النقش الذي على يمين السارية «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين» (٣٣).

وجاء في النقش المثبت على يسار المحراب ما يلي :-

«واقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل أن الحسنات يذهبن السيئات» (٣٤).

ويعد محراب المسجد من أجمل محارِب المساجد في المدينة، حيث يوجد فيه مشكاة سداسة الأضلاع مكللة بقبة مزينة بالمقرنصات تنافس في أناقتها قبة محراب مسجد ابن تومرت بتيمنل ومسجد الكتبيين بمراكش، ويحيط بالقبة آيات قرآنية مكتوبة بخط لين.

أما الإطار فيمتاز بحناياه المفصصة المزينة بآيات قرآنية مكتوبة بالخط اللين وبحافته المستطيلة المزخرفة آيات قرآنية مكتوبة بالخط الكوفي، واشتهر هذا المسجد بسقفه الخشبي المنحوت بزخرفة جدرانه التي تنتظم حوله ثلاثة أقواس مفصصة تناسب الأساليب والبلاطات، وبالقرب منه مسجدان، يرجع تاريخ بنائهما إلى الدولة الزيانية التي تأسست على يد أبي يحيى يغمراسن سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م، وهذان المسجدان هما مسجد أولاد الزياني الذي لم يبق من زينته إلا القبة (٣٥).

أما الثاني فأبوابه تشبه مسجد ابن تومرت بتمنلك في المغرب الأقصى، ومئذنته مربعة، وقبته مزينة بالأخاديد وهي تماثيل قبة حمام الصباغين بتلمسان التي بنيت في العهد المرابطي، لكن عدد الأخاديد في مسجد سيدي إبراهيم أربعة وعشرون أخدوداً، وفي مسجد الصباغين ستة عشر أخدوداً.

ومن المساجد التي بنيت أبان العهد المريني في المدينة جامع المنصور سنة ٦٦٨هـ=١٤٩٩م أثناء حصار السلطان ابو الحسن للمدينة، وجامع سيدي ابي مدين، وجامع سيدي الحلوي، ولم يبق من جامع المنصور إلا القسم السفلي من جدرانه ومئذنته التي يبلغ ارتفاعها ثمانية وثلاثين متراً. وهذه المئذنة مبنية من الحجر وهي تشبه مآذن مسجد الكتسين بمراكش والخرالده باشيلسة، وجامع حسان بالرباط، وقد بنيت فوق الباب الرئيسي للجامع أيام الأمير ابي يعقوب يوسف المريني (٦٨٥-٧٠٦هـ=١٢٨٦-١٣٠٦م) التي كانت تعد من روائع فن النحت الحجري الإسلامي. وتحتوي واجهتها الرئيسية على زخرفة بديعة، ولها باب على شكل قوس حدوية في حافة مستطيلة حيث توجد كتابة تكاد تمحى جاء فيها :- (الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين) (٣٦)، امر ببناء هذا الجامع المبارك امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين المقدس المرحوم ابو يعقوب بن عبد الحق رحمة الله). اما المئذنة فإنها مزينة، مزخرفة بديعة تقسم الى ثلاث طبقات مستطيلة، الأولى مزينة بقوس سباعية الفصوص والثانية بشبكة من المعينات تعتمد على قوسين مفصصين، والأخيرة بخمسة أقواس سباعية الفصوص، تندرج فيها أقواس ثلاثية الفصوص وترتكز على سواري وتيجان.

اما جامع سيدي بو مدين في قرية العباد التي تعد الآن حياً من احياء تلمسان، فقد شيد بأمر من الأمير ابي الحسن المريني، لكنه سمي باسم الشيخ ابي مدين الذي دفن بالقرب منه. ويمتاز مسجد العباد، بمدخله وبابه البرونزي ومحاربه وقبته وزخرفة جدرانه وصحنه ومئذنته وميضاته وحمامه (٣٧).

ومما يلفت نظر الزائر عند وصوله الى مسجد سيدي ابي مدين مدخله الأنيق بزخرفة مرتبة حول قوس مكسورة قليلاً يبلغ ارتفاعها سبعة امتار تحيط بها ثلاثة أقواس مفصصة من الآجر ومندرجة في حافة مستطيلة مزينة بمشيكات مستقيمة منحنية، وفوق ذلك نجد لوحتين وقفيتين وظلة. اللوحة الأولى مزينة بكتابة بالخط اللين جاء فيها :- « الحمد لله وحده أمر بتشيد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أيده الله ونصره عام تسعة وثلاثين وسبعمائة نفعهم الله » وهذا السلطان هو أبو الحسن المريني.

ويتشابه بيت الصلاة في مسجد سيدي الحلوي مع مسجد أبي مدين، لكنه يختلف قليلاً عن بيت الصلاة في مسجد العباد (٣٨).

أما من حيث الأقواس في مسجد سيدي الحلوي فإنها تختلف عن الأقواس في مسجد سيدي أبي مدين، فأقواس سيدي الحلوي تركز على سواري، بينما تركز أقواس مسجد سيدي أبي مدين على دعائم؛ والسواري والتاجين في كلا المسجدين متأثرة بالفن المعماري لمدينة المنصورة التي بناها الأمير أبو الحسن المريني أثناء حصاره لتلمسان.

والتاجان مزينان بكتابة منقوشة على عصابتها، فقد جاء في الكتابة الموجودة على التاج الأيمن :- « أمر ببناء هذا الجامع المبارك عبد الله المتوكل على الله فارس أمير المؤمنين ». وهو السلطان أبو عنان وجاء في كتابة التاج الأيسر :- « جامع ضريح الشيخ الولي الرضي الحلوي رحمه الله » والفرق الثاني بين المسجدين هو أن سقف جامع سيدي الحلوي مصنوع من الخشب، بينما سقف سيدي أبي مدين مصنوع من الحصص، والفرق الأخير بينهما، ما يحويه جامع سيدي الحلوي من قبة أمام المحراب عكس جامع سيدي أبي مدين التي توجد فيه (٣٩).

وبقيت الإطلال من هذه المباني التي تنطق بأمجاده هذه الأمة. مثل سيدي ابراهيم الواقع الآن في نهج ابن خميس، وخارجه ضريح الشيخ، والمسجد والضريح هما من مجموعة المباني التي أقامها أبو حمو موسى الثاني مؤسس دولة بني زيان الثانية، وكانت المجموعة تشمل مدرسة ومقبرة لأمرأء بني زيان وضمن اطار المعمار: عمل سلاطين بني زيان في تلمسان على بناء المساجد والمدارس، وتكريماً منهم للعلماء تزوج السلطان أبو حمو موسى الثاني من أبنة

العالم أبي عبد الله بن أحمد الشريف الحسني، وبنى له مدرسة ليدرس فيها العلوم الشرعية وتحفيظ القرآن وتفسيره، وسنأتي على ذكر المدارس فيما بعد.

وشهدت تلمسان أحداثاً فكرية أدت إلى الصراع بين فقهاء المالكية وأصحاب المذهب الظاهري، مذهب الموحدين الذين استولوا عليها في القرن السادس للهجرة (٤٠). وعاشت المعركة التي دارت بين السلفيين والمتصوفة، والتي دامت ما يزيد عن قرنين من الزمن كانت بدايتها أوائل القرن الثامن للهجرة، وكثيراً ما وصفت سلفية تلمسان بسلفية المشرق التي تزعمها العالم المصلح أحمد بن تيمية الحنبلي، والحقيقة أن سلفية تلمسان جاءتها من المغرب الأقصى، بالضبط من مدينة فاس، وكان الداعي لها الفقيه علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي المشهور بأبي الحسن الصغير الذي تولى قضاء مدينة فاس وتوفي سنة ٧١٩هـ/ ١٣١٩م (٤١).

وامتازت سلفيته عن سلفية معاصره في المشرق الإمام أحمد بن حنبل، بأنها كانت تقتصر على محاربة البدع بجميع أنواعها في إطار المذهب المالكي، وكان يدعو إلى الإطلاع على أمهات كتب المذهب المالكي. كالمدونة والتهذيب للبراذعي ويحضر على شرائها. وكان الهدف من ذلك تنقيح الأفكار وتنظيم التشريع في المغرب ضمن إطار المذهب المالكي لأن الموحدين أصحاب المذهب الظاهري يختلفون معهم في عدد من القضايا، فهم لا يعتمدون على القياس، ويفضلون إمامهم المهدي على أبي بكر وعمر.

ولما انتهى حكمهم قام علماء المالكية باستتابة أتباعهم فإن لم يتوبوا قتلوا (٤٢). ويبدو أن ما أحدثته هذه الحركة وأمثالها من الحركات الفكرية في تلمسان. كان لها صدى في مدن المغرب الأوسط المجاورة لها : فالإمام ناصر الدين المشدالي البجائي الذي قاد الشعلة الفكرية في بجاية، كان قد حمل جذوتها ثانية للمدينة عمران أبي موسى المشدالي (٦٧٠-٧٠٥هـ=١٤٧١-١٣٠٥م) الذي كان مسؤولاً عن التدريس في المدرسة التاشفينية، وكان شيخ ابن خلدون.

وكثر التفرع في العلوم الشرعية عند علماء تلمسان وعلماء فاس وغيرهم من العلماء في هذا العصر، ونحت منحى التبسيط، واتسم الطلبة بسمعة طيبة، فلم يقعدهم كبر السن أو المراتب العليا عن طلب العلم مما أدى إلى اتساع دائرته، فنما علم الفروع على حساب علم الأصول، ويرجع ذلك إلى الرغبة فيه وكثرة الطلب عليه، ويبدو أنه اكتسب بعض التحسينات في المنهجية من حيث الجمع والتعليل والإستنساخ إلى حد ما، صاحبه عقد المناقشات والمناظرات التي نتج عنها خصوبة فكرية بين أربابها، ولكنها لم تتعد أوساطهم، وتركت الدولة

الحرية لهم في عقد مجالسهم ومنظاراتهم دون التدخل بها، وزادت في اكرامهم واکرام الطلبة، وقد نوهنا في هذا التكریم فيما سلف. إستحابة منها لرغبة الأمة التي انزلتهم منزلاً حسناً ولا نقياً بهم، ولعل ما قام به الشريف التلمساني من إكرام لطلبته بتحويل الأسئلة التي ترد من السلطان أبي حمو الثاني ومن دونه من رجال السلطة الى طلبته، وتسميتهم بأسمائهم عند السلطان ليرفع من منزلتهم، لذلك كانوا في زمنه من أعز الناس وأوسعهم رزقاً، الأمر الذي شجع طلاب العلم على طلبه والإنصاف به (٤٢).

ونتيجة لهذا التشجيع والمنافسة بين العلماء، واهتمام الحكام من بني زيان بهم، في اغداق الأموال عليهم بسخاء (٤٤) ورحيل علماء الأندلس إلى المدينة، كل هذا ساعد على تأسيس المدارس والمعاهد التي كان لها أثر واضح في التعليم والتكوين في مختلف المجالات.

وأول مدرسة أنشئت في زمن سلاطين بني زيان، المدرسة التي أمر ببنائها أبو حمو موسى الأول (٧٠٧-٧١٨هـ=١٣٠٧-١٣١٨م) وعين فيها ابني الإمام للتدريس، وجاء ابنه السلطان أبو تاشفين الأول سنة ٨١٨-٧٣٧هـ=١٣١٨-٣٣٩م. وبنى المدرسة التاشفينية كما ذكرنا، وكانت تعد تحفة معمارية (٤٥) فنية تشهد على التقدم المعماري في المدينة الى وقت قريب حتى هدمتها السلطات الفرنسية، وبنّت مكانها البلدية، وأنشأ السلطان أبو الحسن المريني ٧٤٨هـ=١٣٤٧م، اثناء حصاره للمدينة مدرسة بقرية العباد، وتبعه ابنه عنان، فأنشأ مدرسة بجانب ضريح الولي أبي عبد الله الشوذري الأشبيلي الملقب بالحلوي (٤٦).

والمدرسة اليعقوبية التي أمر بانشائها أبو حمو الثاني (٧٦٠-٧٩١هـ=٣٥٨-١٣٨٨م) بجانب قبر أبيه أبو يعقوب يوسف، وعميه أبي سعيد عثمان وأبي ثابت، الذي دفن فيما بعد فيها العالم إبراهيم المصمودي المتوفي سنة ٨٠٤هـ أو ٨٠٥هـ=١٤٠١ أو ١٤٠٢م ومن سوء الطالع أنها اندثرت مثلما اندثر غيرها من المدارس (٤٧).

وكان أسلوب التعليم بمدارس المدينة لا يختلف عن غيره من الأساليب المعروفة في المدارس آنذلك، حيث يقوم على الإلقاء والشرح، فكانت تقرأ الآية ويتكلم بها قليلاً، ثم يفتح ما يناسبها من الأحاديث النبوية وأخبار السلف وسير النبي وأصحابه والتابعين، ثم بعدها يرجع إلى الآية ليدلل عليها بما يماثل المضمون وربما أخذ في نقل الأحاديث الأول ثم الثاني وهكذا، وهذه الطريقة هي الغالبة على علم الفروع المختصرات العقيمة الناجمة عن عدم القدرة على الاختصار الحسن بسبب عدم الرؤية الواضحة والإمام الكافي بالموضوع المراد التأليف فيه (٤٨).

وكان محور التدريس يدور حول الكتب الآتية :-

في التفسير :- لامية الشاطبي، وتفسير ابن عطية، والكشاف للزمخشري الذي كان

يدرس في مدارس فاس أيام المرينيين المعاصرين للزيانيين وغيرها من كتب التفسير الأخرى. وكان من أشهر المفسرين، محمد المغيلي، ومن أبرز مؤلفاته: - البدر المنير في علوم التفسير، ومحمد السنوسي^(٤٩) الذي شرع التفسير ووقف على قوله تعالى: - « أولئك هم المفلحون » وابن زاغو الذي فسر معظم القرآن، وسيرد ذلك فيما بعد.

وفي الحديث، قام علماء المدينة بروايته ودرايته، وكانت من أهم الكتب المتداولة آنذاك الصحاح الست، والروضة للكباري، وأرجوزة الحديقة^(٥٠) وسار علماء المغرب في هذا الوقت على هذا المنهج، أمثال العبدوسي، وابن الرشيد الفهري، ولكنهم تميزوا عنهم برحيلهم الى المشرق لأخذ هذا العلم عن اصحابه من أعلام الرواية بما فيه التحقيق، وضبط السند^(٥١) ومن الكتب التي كانت متداولة في الفقه المالكي في القرن الثامن للهجرة، الموطأ للإمام مالك، والتمهيد لابن عبد البر، والمدونة للإمام سحنون، وشرح مختصر خليل للقوري المتوفي سنة ٨٧٢هـ / ١٣٨٠م والذي كان يدرس في فاس وتلمسان^(٥٢).

وفي النحو واللغة العربية، كتاب الإعراب عن شواهد الإعراب لابن هشام، والإيضاح للفاسي والألفية والتسهيل لابن مالك، وكتاب سيبويه الذي درس في مدارس تلمسان ومدارس فاس على حد سواء.

أما التصوف، فقد هيمن عليه الفقهاء في هذا العصر وعاش الفقه في ظلاله، وأصبح في هذا الزمن يمثل لب الشريعة، وكان من أقطابه في تلمسان الأبلبي، وأبو مدين وغيرها. وتضمن علم القراءات التجويد والرسم والقراءات المأثورة والغريبة وتوجيهاتهم، فكان معروفاً لدى معظم الفقهاء.

وشملت العلوم الطبيعية، التنجيم والكيمياء والرياضيات، والذي لامرأ فيه أن معظم النشاط العلمي كان منصباً على الحساب والجبر والهندسة والفلك، وكان من كبار العلماء في الرياضيات في المغرب الأقصى، أبو العباس بن البناء العددي، الذي كان لا يؤمن إلا بما يهديه إله فكره بعد البحث والتدقيق.

ووجد في تلمسان أبو عبد الله محمد بن علي بن النجار التلمساني المراكشي الأصل التلمساني الدار، الذي أخذ عن الأبلبي، ورحل الى المغرب الأقصى، ودرس على أبي عبد الله محمد بن هلال شارح المجسطي، وأخذ عن أبي العباس بن البناء المراكشي^(٥٣). وإلى جانب ذلك نبغ في العلوم العقلية، ونجح في مهنة التعليم، ثم عاد الى تلمسان ليتابع مهنته في التعليم، وبعد مدة التحق ببلاط السلطان أبي الحسن المريني، وتوفي في وباء الطاعون سنة

٧٤٩هـ-١٣٤٨م، وكان من أنجب تلاميذه أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بابن الفحام صاحب المنجاة الشهيرة الذي صنعها في عهد السلطان أبو حمو الثاني، ووصفها يحيى ابن خلدون بقوله : «خزانة ذات تماثيل اللجين المحكمة، قائمة الصنع تجاهه بأعلامها أيكة تحمل طائراً...» وقد ضاعت ولم يصل إلينا منها إلا وصفها (٥٤).

وبالجملة فقد برز عدد من علمائها في مجالات متعددة، وسنقتصر في حديثنا على نخبة من العلماء في مختلف التخصصات، لإعطاء صورة أوضح عن الكتب المؤلفة والمتداولة بين العلماء والطلبة في المدينة.

وسنبدأ في العلوم الدينية لما لها من أهمية في بناء الشخصية وتحصين الذات من التيارات الثقافية التي لا تتلائم والعقيدة لذا، أخذت حظاً وافراً من التدريس في المدارس التلمسانية على يد عدد من العلماء منهم :-

-أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام، أكبر الأخوين إبنی الإمام، وأصلهما من برشك (٥٥) رحلا الى تونس لطلب العلم حوالي سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م، فدرس العلوم الدينية على تلامذة ابن زيتون وأبي عبد الله بن شعيب الدكالي، ثم عادا الى المغرب الأوسط، وعملا في التدريس، وتحوّلا في الكثير من مدنه، الى ان استقر بهما المقام في تلمسان أيام السلطان أبي حمو الأول الذي أقام لهما مدرسة عرفت باسمهما، وأخذا يدرسان فيها الى أن توفي أبو زيد سنة ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م.

من العلماء الذين أخذوا عنه، الأيلي عبد الله محمد بن محمد المقرئ، وأبي عبد الله الشريف وسعيد العقباني وغيرهم الكثير، من مؤلفاته :- شرح على مختصر ابن الحاجب في الفروع.

- أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني، أخذ عن الأخوين إبنی الإمام، وعن أبي موسى عمران المشدالي، وأبي محمد عبد الله المجاصي، وأبي عبد الله بن هدية، فظهرت نجابته في مختلف العلوم من معقول ومنقول، ودرس التنجيم والرياضيات على أبي عبد الله بن النجار، ورحل إلى فاس وأخذ على عالمها الأيلي علوماً كثيرة ثم عاد الى تلمسان وعمل في التدريس، ولما استولى الأمير أبو عنان على تلمسان من بني مرين استدعى أبا عبد الله وتزوج ابنته وبنى له مدرسة جعل في بعض جوانبها مدفن أبيه وعمه، وأقام الشريف في تلمسان يبت فيها العلم، وختم فيها تفسير القرآن مرتين، ودرس علوماً كثيرة الى ان توفي في ذي القعدة سنة ٧٧٠هـ-١٣٦٩م، فأمر السلطان أبو حمو أن يدفن عند قبر والده أبي يعقوب تبركاً بجواره.

تخرج على يده عدد من العلماء من بينهم، ولده أبو عبد الله، والولي الصالح ابراهيم المصمودي، وأبو اسحاق الشاطبي، وابن السكاك (٥٦)، وعبد الرحمن بن خلدون وأخوه يحيى، من تأليفه مفتاح الوصول في علم الأصول.

- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الخطيب، نشأ بتلمسان وأخذ عن ناصر الدين المشدالي ببجاية، وأقام مع أبيه المجاور للحرمين، ثم ارتحل عنه متوجهاً الى القاهرة وفيهيا لازم برهان الدين الصفاقسي، وعاد الى وطنه تلمسان سنة ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م فوجد السلطان أبو الحسن المريني محاصراً لها، فاتصل به وأصبح من جلسائه، وساهم مع عمه في الإشراف على المسجد الذي أمر ببنائه السلطان أبو الحسن في قرية العباد والذي سماه بمسجد أبي مدين (٥٨) وبعد الإنتهاء من بنائه عينه على الخطابة فيه بعد وفاة عمه، ونال اعجاب السلطان أبي الحسن فزاد في رتبته في مجلسه، في تلك الأثناء كان يحضر المجالس العلمية للأخوين أبناء الإمام.

من تلامذته :- ابن القسطيني، وأبو الشاطبي وغيرها.

ومن أشهر مؤلفاته :- كتاب المسند الذي يشتمل على عرض مفصل لحياة الأمير أبي الحسن المريني، وما وقع في عهده من حوادث هامة وانجازات عمرانية وما ازدان به عصره من عناية بالعلم والعلماء، وله أيضاً شرح البردة، وشرح على ابن الحاجب الفرعي، عنوانه أزالة الحاجب على فروع ابن الحاجب، وشرح على الأحكام الصغرى لابن عبد الحق الاشبيلي، وشرح على عمدة الأحكام في خمسة اجزاء.

- الشيخ ابراهيم بن موسى المصمودي التلمساني من مضارب قبيلية صنهاجة بالقرب من مكناسة، أخذ العلم عن العبدوسي (٥٩) والآبلي وغيرهما من علماء فاس، ثم اتخذ من تلمسان مقراً له، وأخذ عن علمائها منهم، عبد الله الشريف الذي عمل في التدريس بالمدرسة اليعقوبية، وبعد وفاته أخذ عن سعيد العقباني المدرس في المدرسة التاشفينية، ثم انقطع للعبادة والتدريس، فأخذ عنه أبو عبد الله بن جميل، وابن مرزوق الحفيد وغيرهما، وتوفي سنة ٨٠٤هـ أو ٨٠٥هـ = ١٤٠١-١٤٠٢م، ودفن بضريح الأمراء الزيانيين بجانب المدرسة اليعقوبية. وكان محط اعجاب الجميع، وبسبب ذلك سمي المسجد المحاذي لضريحه باسم (مسجد سيدي ابراهيم).

- أبو عثمان سعيد بن محمد العقباني، ولد بتلمسان سنة ٧٢٠هـ / ١٣٥٠م. وتعلم فيها على الأخوين ابني الإمام، ثم درس الأصول والعلوم العقلية على الآبلي، والفرائض على الحافظ السطي وعلى غيرهما من العلماء، ونال قسطاً وافراً من التفسير، والأصول، والفقه،

والتصوف، والمنطق، والحساب، والهندسة وغيرها من العلوم الأخرى.

تولى خطة القضاء في مدينة وهران، وهنين، وتلمسان، ومكث في هذه الخطة بمدينة تلمسان ما يزيد عن أربعين عاماً، زاول خلالها التدريس، أخذ عنه ابن مرزوق الحفيد، وأبو يحيى بن أبي عبد الله الشريف، والشيخ إبراهيم المصمودي، وأبو الفضل بن الإمام، وأبو العباس بن زاغو.

من تأليفه :- تفسير سورتي الفتح والأنعام، الوسيلة بذات الله وصفاته الى حاجب خليقته في مخلوقاته، وشرح العقيدة البرهانية، وشرح على الحوفي في الفرائض، توفي سنة ٨١١هـ / ١٤٠٨م.

- ابن مرزوق الجد : ابو الفضل محمد بن أحمد بن محمد، ولد بتلمسان سنة ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م. ونشأ بها، وأخذ العلم عن جماعة من علمائها، ثم رحل عنها الى مختلف الأقطار العربية (٦٠).

من أبرز مؤلفاته :- أنور الدراري في مكررات البخاري، وأرجوزة الروضة، وشرح صحيح البخاري (غير تام) وبعض الفتاوي في مسائل سئل عنها، مثل إسماع الصم في اثبات الشرف من قبل الأم، وله في الاعتقاد، عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات التقليد (غير تام) والنصح الخالص في الرد على مدعى رتبة الكامل الناقص... الخ توفي سنة ٨٤٥هـ = ١٤١١م بتلمسان فحضر جنازته السلطان والوجهاء، وعدد غفير من الناس، ودفن في الجامع الأعظم بالمدينة.

- أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن زاغو المغراوي التلمساني، أخذ عن سعيد العقباني وأبي يحيى عبد الرحمن بن أبي الله الشريف وغيرهما، درس بالمدرسة البعقوبية، فكان يعلم التفسير، والحديث، والفقه في الشفاء، والأصول والفرائض والعربية والحساب والهندسة في الصيف.

من أشهر تلامذته :- أبو زكريا بن ادريس المازوني صاحب النوازل، وأبو الحسن القلصادي، والحافظ التنسي، وابن زكريا.

من آثاره :- تفسير الفاتحة، وشرح التلمسانية في الفرائض وفتاوي كثيرة ورد ذكرها في المعيار للنشرسي، وفي نوازل المازواني، توفي ابن زاغو في وباء الطاعون سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م.

- أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، نشأ بتلمسان، وأخذ عن

علمائها، ثم غادرها لطلب العلم، وأخذ عن عبد الرحمن الشعالي وغيره، ثم انتقل الى الصحراء واستقر بناحية توات، وبها فتواه الشهيرة القائلة بوجوب القضاء على ما كان يمتاز به اليهود آنذاك، من منزلة سامية لدى الحكام، وحرية بناء البيع، وفعلاً قام المغيلي مع جم غفير من الأتباع بالتوجه الى بيع اليهود لتدميرها وتطبيق الجزية والغيار عليهم وقد تعرض المغيلي الى مخالفة قاضي توات في هذا الرأي، وكتب الى علماء فاس، وتلمسان في هذا الموضوع، وكانت معظم الأجوبة موافقة لفتواه^(٦١).

وللمغيلي تأليف عدة منها، تفسير الفاتحة، والبدر المنير في علوم التفسير، ومفتاح النظر في علم الحديث، ومغني النبيل في شرح مختصر خليل، وتنبيه الغافلين عن الملبسين وغيرها. أما رسالته حول يهود توات فتحمل عنوان مصباح الأرواح في اصول الفلاح، التي قام بتحقيقها المرحوم رابع بونار، ونشرت مؤخراً في الجزائر، وتوفي المغيلي سنة ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م بناحية توات بعد أن ساهم مساهمة كبيرة في نشر الإسلام في السودان. والغرض من ذلك انتشار الثقافة الفقهية بين الناس، لتعمل على تنشيط الفكر وتنويه العقل وبناء النفوس، لتكون قادرة على حل مشاكلها اليومية ومحاربة التيارات والأعمال التي لا تتفق مع العقيدة مثلما حصل مع يهود توات.

ومما التصوف في المغرب عامة، وفي تلمسان خاصة في اتجاهات متعددة، ابتداء من انشاء الطرق الى التصدي للممارسات السيئة، وتهذيب الأخلاق والسهر على الفضيلة، ونشر المعرفة مع وجود مجتمع من الفقهاء، يعمل على التوفيق بين التعاليم الشرعية ووجهة النظر الرسمية من غير ان يحظى بتمجيد من المجتمع الصوفي، وكان لحركة أبي مدين والحركات التي جاءت بعدها والتي كان من زعمائها الأيلي، أبو عثمان سعيد بن محمد العقباني، اللذان سبق ذكرهما كان لهذه الحركات الأثر المحمود في المجتمع.

وكانت أقوال سيدي أبي مدين في زمنه، تعد مرجعاً لأهل الصوفية في تلمسان ومن أقواله :- «بفساد الأمة تظهر ولاية الجور، وبفساد الخاصة تظهر دجاجة الدين المفتاتون».

وكان يهدف من ذلك تطهير النفوس مما أصابها من الدنس، والعمل على الترابط الإجتماعي في مساعدة الناس لبعضهم بعضاً.

ومن برز في هذا الميدان الى جانب الأدب حتى أصبح علماً من الأعلام ، عفيف الدين أبو الربيع سليمان بن علي بن عبد الله بن ياسين العابدي الكومي التلمساني المعروف باسم (العفيف التلمساني) أو العابدي، فهي نسبة الى روضة العباد في تلمسان، والكومي نسبة

الى قبيلة كرمية، الذي ظهر منها عبد المؤمن بن علي المؤسس السياسي لدولة الموحدين، وكانت منازلها في ساحل البحر القريب من تلمسان.

ولد العفيف سنة ٦٦٠هـ=١٢١٣م، في تلمسان ثم قدم الى القاهرة بعد أن أصبح في مقتبل العمر ونزل بخانقاه سميت بـ(سعيد السعداء) وأقام فيها ثم استقر بعد ذلك في دمشق في قصر صنف الذي يقع في رياض الصالحية في سفوح جبل قاسيون واستقر هناك الى أن مات سنة ٦٩٠هـ=١٢٩١م، وما زال ضريحه قائماً بالقرب من الجبل من أقواله في تلمسان :-

حيا تلمسان الحيا فربوعها صدق بجود بدرها المكنون (٦٣)

وظهر في عهد بني زيان في تلمسان أعلام في الأدب، أمثال لسان الدين بن الخطيب الذي وصف تلمسان بقطعة نثرية اتسمت بالسجع وتضمنت أدباً وتاريخاً وجغرافياً وسياسة واقتصاداً، نقتطف فقره منها « تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووضعت في موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاج... »

ومن شعره في وصفها حينما انشد السلطان ابا سالم المريني قصيدته البالغة خمسة أبيات ومائة بيت، مطلعها :-

أطاع لساني في مديحك إحساني وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان (٦٤)

وشهدت تلمسان حركة قوية في الشعر المولدي خاصة في عهد السلطان أبي حمو الثاني الذي كان يتصدر المجلس الذي يقام بقصر المشور جالساً على سرير الملك، وكان الأشراف وعلية القوم يتخذون لهم مقاعد خاصة بهم، ولا يرى فيها الا الجمال والحديث الهادي، وكان المحتفلون يطوف عليهم ولدان بأيديهم مباخر ومرشات يرشون بها الجالسين، وكانوا يقضون الليل كله في ترديد الأوراد أو الأذكار، ويؤتى بآخر الليل بالأطعمة الشهية والأشربة اللذيذة والحلوى والفاكهة الى أن ينبجل الصبح حيث تقام الصلاة، وبقيت هذه العادة عند المغاربة عامة حتى أيام الإحتلال الفرنسي.

ومن مآثر السلطان ابي حمو اعتناؤه بالعلم وأهله، فكان من جلسائه الإمام ابو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحيى بن قاسم بن حمود من سبط ادريس ابن ادريس، كان له محباً، أمر ببناء مدرسة له عند وفاة ولده، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، ورتب لها الجرايات وعين ابا عبد الله للتدريس فيها، وحضر السلطان مجلساً من مجالسه على الحصيرة اكراماً له، فلما انفض المجلس اشهد الناس بتلك الأوقاف وكسا طلبتها، واطعم الناس وكذلك فعل يوم اقام تفسير القرآن فيها، وللسلطان قصيدته الميمية :-

قام الأحباب ولم تنم عيني بمصارع الندم
والدمع تحدر كالديم جرح الخدين فوا ألم (٦٥)
وقد القاها السلطان سنة ٧٦٠هـ=١٣٥٨م، وأطال في مقدمة القصيدة التي خصصها
للتعبير عن ذاته الحزينة، ويطلب ابنه برعاية الحجاج ومساعدتهم حتى يغفر الله له "فإن
الدعاء هناك مجاب، وليس بينه وبين الله حجاب، ويقرر انه نظمها شوقاً الى (ذلك المقام
الشريف، والمحل الأنوار المنيف).

وقد أرسل الشاعر هذه القصيدة مع بعض الحجاج الى قبر الرسول (مع رسالة رجاء للشوَاب
وتيسيراً للأسباب).

وتطورت الإحتفالات بالمولد النبوي الشريف في تلمسان تطوراً بلغ غايته في الزينة والفرح
والبهجة على عهد موسى أبي حمو الثاني، الذي كان يشرف على هذه الإحتفالات بنفسه،
ويقیمها في كل مولد بتلمسان، وكان يبدي لهم من مظاهر الترحاب والإحتفاء، ويقدم لهم من
المأكّل والمشرب ما يفوق الوصف.

«فما شئت من فمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة، ومشامع كأنها الإسطوانات القائمة على
مراكز الصفر المموهة» وحافظت القصيدة المولدية على المطالع الغزلية، ويظهر هذا جلياً في
قصيدة ابي حمو المولودية بقوله :-

قفا بين أرجاء القباب وبالحفي وحي دياراً بها حي (٦٦)
فالشاعر-ابو حمو- يبتدىء قصيدته بما ابتدأ به امرؤ القيس معلقته.
قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بقسط اللوى بين الدخول فحومل
وغالباً ما يفتتح المولدية بأبيات غزلية بقوله :

شوق تزيا بالغرام وشاحاً حتى ما جرى ذكر الأجنة صاحبا
ومن اشتهر من الشعراء والأدباء في عهد ابي حمو الثاني ابو عبد الله بن يوسف القيسي
الشغري، الذي كان كاتباً للسلطان ابي حمو، والذي اشاد بحاسن تلمسان في قصائده، من
ضمنها قصيدة له في وصف ملعب الفروسية المقام خارج المدينة، وقد اوردنا مقتطفاً منها عند
ذكر الملعب، ونورد هنا ابياتاً قالها في محاسن المدينة، مبدئاً اعجابه بها فيقول :-

أيها الحافظون عهد الوداد حدود انسنا بباب الجياد
كل حسن على تلمسان وقف وخصوصاً على ربي العباد
وسما تاجها على كل تاج ونما وهدها على كل واد

ويعصف متنزهاتها في مختلف اوقات النهار في قصيدة بلغ عدد ابياتها خمسة وعشرين بيتاً، قال فيها :-

وتمش في جناتها ورياضها واجنح الى ذلك الجناح المخضل
الى أن يقول :-

وكدية عشاق الحسن ينتهي يعود المسن الشيخ من حسننها طفلاً
لها بهجه تزري على بلدة بتاج عليها كالعروس اذا تجلى (٦٧)

هذه القطع الشعرية تفصح عن اعجاب قائلها بمحاسن تلمسان، وعلى عمق تأثيرها في النفوس الأمر الذي ساعد على صقل الأذواق، فأوجد تأثقاً في الملبس والمأكل عند التمسانيين وظهر واضحاً في عهد السلطان ابي حمو الثاني فقد شهدت المدينة تأثيرات حضارات اندلسية ومشرقية أثرت في المعطيات الحضارية للمدينة، وظهر جلباً في الشعر الذي أبدى اصحابه فيه اهتماماً في الصنعة اللفظية والمحسنات البديعة.

ويبدو لي ان المجالس كانت تنم عن ظاهرة ثقافية تعمل على نشره وتبجيل أهله. ويلاحظ حركة التطور في الأدب مشرقياً ومغرباً بما فيها الأندلس كونت وحدة ادبية رغم انقسامها سياسياً، فقد انتهجت منهجاً واحداً في الصناعة اللفظية والمحسنات البديعة التي أفرط بها أهل ذلك الزمن.

أما عن علاقاتها الثقافية في المشرق، فقد ارتبطت ارتباطاً ثقافياً وروحياً بالقدس، وتجد الى الآن جنوب باب السلسلة من الحرم القدسي، باب المغاربة وحائط المبكى ومعه الرصيف الكائن امام هذا الحائط، كل هذه المساحة وقف تلمساني يرجع الى اوقاف الشيخ شعيب بن الحسين الشهير بسيدي ابي مدين الغوث دفين العباد بتلمسان سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٨م وقد انشأ هذا الوقف زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي لصالح جماعة من مسلمي المغاربة.

وتولى منصب قضاء المالكية في القدس والتدريس فيها سنة ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م القاضي برهان الدين ابي اسحاق بن زين الدين ابي المعالي منصور المالكي التلمساني. وفي سنة ٨٦٧هـ = ١٤٦٢م، كانت خطة قاضي القضاة أو قاضي الجماعة في القدس مقتصرة على التلمسانيين (٧٠).

وتمتعت مدينة تلمسان بموقع جغرافي هام اكسبها اهمية تجارية، وفي هذا يقول ابو الفداء اسماعيل عن اهمية الملاحة النهرية فيها "..... ويستدير النهر بقبلها وشرقها ويدخل فيه السفن اللطاف حيث يصب في البحر....." (٧١)

ويذكر الأدريسي عن حركة ميناء هنين الذي يعد فرصة لتلمسان فيقول : "وهنين مدينة

حسنة صغيرة في نحر البحر وهي عامرة عليها سور متقن واسواق بيع وشراء، وخارجها زراعات كثيرة وعمارات متصلة....." (٧٢)

ولها طريق يقع على الساحل يقدر بمرحلتين أو ثلاثة مراحل، يصلها بوهران، وخط السير فيه يبدأ من تلمسان الى وادي وارو مرحلة، والى قرية تانيت مرحلة، ومنها الى وهران مرحلة. وهناك طريق بري يبدأ من تلمسان عبر المسيلة ومنها الى تاهرت ويبلغ طوله عدة مراحل، وهذا الطريق غير مونس وطرقه قليلون، ومن القرى الواقعة عليه، قرية صغيرة تقع ضمن فحص افصح فيها بئران ماؤها غير جيد، ومنها الى مدينة تاهرت مرحلتان، وبين تلمسان والبحر، اربع مراحل.

ومن الطرق البرية الأخرى، طريق ينطلق من المدينة عبر فاس الى صفروي الى تادله الى اغمات الى درعه الى سجلماسه، وطريق صحراوي آخر يبدأ من تلمسان الى قرية تارو بمسافة مرحلة، والى جبل تامديت مرحلة، والى غايات مرحلة، والى تيوي مرحلة، والى تقرت مرحلة، والى سجلماسه ثلاث مراحل (٧٣).

ونشط أهل تلمسان في التجارة، وتأسست شركات كان من أبرزها شركة أخوة المقرري اجداد مؤلف نفح الطيب، الذي يقول عنهم في كتابة المذكور :- "..... ثم اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار، واتخذوا طبلًا للرحيل يتقدم عند المسير، وكان ولد يحبى الذين منهم ابو بكر خمسة رجال فعقدوا الشركة بينهم في جميع ما ملكوه، ويملكونه على السواء بينهم والإعتدال فكان ابو بكر ومحمد وهما ارومتانسي من جميع جهات امي وابي بتلمسان وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسه وعبد الواحد وعلي وهما شقيقاهم الصغيران بايولان فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط والديار وتزوجوا النساء واستولدوا الأماء وكان التلمساني يبعث الى الصحراوي بما يرسم له من السلع ويبعث اليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر والسلجماسي كلسان الميزان يعرفها بقدر الخسران والرجحان ويكاتبهما بأحوال التجارة وأخبار البلدان حتى اتسعت أحوالهم وارتفعت في الفخامة أموالهم" (٧٤).

نستنتج من ذلك ما قام به اخوة المقرري من تقديم الخدمات قصد تسهيل حركة التجارة، فالى جانب نشاطهم التجاري في البيع والشراء، قاموا بتمهيد الطرق وتوضيح معالمها حتى لا تضل القوافل ويسهل سيرها لتصل في الوقت المناسب، الى جانب حفر الآبار في الصحراء لتوفير الماء، فالآبار الموجودة قليلة، والبعض منها غير صالح للشرب، فقرية تيوي لا يصلح

ماؤها، وما يحتاجه المسافر يأخذه من بئر اقنات، أو من شعيب الصفا الواقعة بين جبال درن، والتي تتدفق عليها المياه من أعالي الجبال فتصبح وكأنها مجرى، وعلى امتدادها يكثُر السكان، عكس ما بعد سجلماسة التي تكاد ان تكون خالية من السكان.

واينعت الصناعة في المدينة وخاصة صناعة البناء، فقد اشرنا الى قدوم البنائين والصناع والفعلة من أهل غرناطة، الى جانب المختصين بهندسة البساتين، عندما استعان بهم الأمير ابو تاشفين الزياني الذي تولى الحكم سنة ٦٩٢-٧٣٧هـ=١٢٩٢-١٣٣٦م أيام سلطان غرناطة ابو الوليد اسماعيل الثاني، والذين توافدوا على المدينة فيما بعد تبعاً، الى ان تم تهجيرهم، فقدموا الى المدينة باعداد كبيرة، مما ساعد على نمو الحرف في المدينة، كان أكثرها تميزاً-زمن الوزن- صناعة الحدادة بأشكالها وانواعها المختلفة، لدرجة ان احدى ضياعها المسماه بنفسرة أو تفسيرة والتي كانت تسمى احياناً بـ(مديونة) والمسماه اليوم بـ(شلاشة) أو زهرة بني بهدل- الخميس، وكان الصناع لا يعملون الا في الحدادة وأبرزها صناعة السروج، ويرجع ذلك لتوفير مناجم الحديد في ارضها الذين كانوا يقومون باستخراجه ثم تصنيعه.

وحذق اهلها بمساعدة الأندلسيين الموجودين فيها بتنظيم الري مما ساعد على وفرة الإنتاج من الخضار والفواكة، وكانت تضاهي في رخائها مدينتي فاس واغمات في المغرب الأقصى.

وعمل سلاطينها من بني زيان على مشابهة سلاطين فاس من المرينين، مما اوجد منافسة حادة بين المدينتين تخضعت عنها عداوة سياسية بين السلطين، ففي سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م قام السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق- كما ذكرنا- بحصار مدينة تلمسان أيام السلطان ابي زيان بن عثمان بن يغمراسن، واستمر الحصار ثمانين سنين واربعة أشهر، نال أهلها خلاله من الضنك وشدة الجوع الشيء الكثير، لدرجة ان مكبال القمح-ومقداره اثنا عشر رطلاً- كان يساوي مثقالين ونصفاً من الذهب، وثمان رطل لحم الخروف سبعة مثاقيل، وثمان رطل لحم من البغال والحمير مثقالاً، وسعر البيضة أو العصفور ستة دراهم، والأوقية من السمن والزيت اثني عشر درهماً، ومن الخيار ثلاثة دراهم، وغيرها من الأشياء النادرة والغالية.

واصببت المدينة بوباء الطاعون ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م مما افقدها عدداً من علمائها، ورد ذكر وفاتهم عند الحديث عنهم.

وعلى الجملة، فقد كان المجتمع التلمساني يقسم الى اربع فئات، الصناع، والتجار، الطلبة، والجيش، ولعل هذا التقسيم يشبه التقسيم الاجتماعي في تونس الحفصية، وفاس المرينية، وغرناطة بني الأحمر.

وعرف عن المجتمع التلمساني حسن النظافة والنظافة، فقد وجد فيها عدد من الحمامات الى جانب المتنزهات والمساجد والمدارس والأضرحة، وظهر في أواخر القرن التاسع ميل واضح للتصوف مما زاد في عدد المتصوفة وكثرة اتباعهم، امثال الداودي وغيره (٧٩) وقد عملوا على محاربة الأفكار الدخيلة وتثبيت القيم. (٨٠)

ونظر أهل المغرب للمدينة نظرة اعجاب وتقدير، والى اليوم تسمى عند الجزائريين (٨١) بـ(لؤلؤة الجزائر) هذه المدينة التي ما زالت الى الآن تعد من الحواضر الهامة في المغرب.

نتائج البحث

- ١- احتلت المدينة الصدارة بين المدن المغربية، مما جعلها مركزاً من المراكز الثقافية والسياسية والإجتماعية عبر الحقب الزمنية الى يومنا هذا.
- ٢- امتازت المدينة بكثرة المنشآت العمرانية فيها، وتعدد أغراضها مما ساعدها على تأدية رسالتها في الميدانين الإجتماعي والثقافي.
- ٣- امتاز أهلها بالظرافة وحبهم للعلم والعلماء، مما جعلها موئلاً لهم.
- ٤- تنافس الحكام الذين استولوا عليها- من المرينيين والزيانيين- على بناء المدارس والمساجد وتسميتها بأسماء العلماء تكريماً لهم، واغداق الأموال عليهم تشجيعاً لهم في طلب العلم والعمل على ازدهاره.
- ٥- اتسمت طريقة التعليم بالإعتماد على الفروع على حساب الأصول، وعلى عقد المناقشات والمناظرات التي نجم عنها خصوبة فكرية بين اربابها لم تتعدهم.
- ٦- اعتمد علماؤها على منهجية علمية في التأليف وجمع المعلومات، أما الإختصار فكان عقيماً لعدم المهارة فيه.
- ٧- نما التصوف، وعاش الفقه في ظلاله، فاصبح يمثل لب الشريعة، واتخذ المتصوفة من تلمسان مقراً دائماً لهم.
- ٨- ازدهر الأدب خاصة الأدب المولودي الذي شارك فيه الى جانب الشعراء الأمراء مثل :- أبو حمو يغمراسن وغيره من الأمراء الزيانيين.
- ٩- ارتبطت المدينة ارتباطاً روحياً بالقدس الشريف على مر العصور، ويوجد فيها الى الآن وقف تلمساني يعود الى الشيخ ابي مدين شعيب.
- ١٠- امتازت المدينة بنشاط تجاري هام خاصة مع افريقيا زمن السلطان ابي حمو يغمراسن الزياني.
- ١١- ازدهرت الصناعة والزراعة في المدينة بفضل الأندلسيين الموجودين فيها، والذين ساهموا في بناء صرحها الحضاري خاصة في الجانب المعماري.

الهوامش

- ١- البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، نشر دي سلان، الجزائر ١٨٥٧م.
- ٢- الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، معجم البلدان، ط- دار احياء التراث العربي- بيروت ١٩٣٣هـ / ١٩٧٩م، ج٢، ص٤٤، الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ت- احسان عباس ط١، بيروت ١٩٧٥م ص٩٢.
- ٣- الجيلالي -عبد الرحمن بن محمد، تاريخ الجزائر، ط٢، منشورات مكتبة الحياة-بيروت، ١٣٨٤هـ / ١٩٧٥م، ص٢٩٦، وما بعدها.
- ٤- محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني المعروف بابن مرزوق الخطيب والحاجب والرئيس، أكبر محدثي المغرب في القرن الثامن الهجري، ولد بتلمسان سنة ٧١٠هـ، وتوفي سنة ٧٨١هـ= ١٣١٠-١٣٧٩م، كتب مؤلفه المذكور عن السلطان أبي الحسن المريني، نشر جزءاً منه المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال في مجلة هسبريس، HESPERIS, 1985. راجع ، لسان الدين ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ت- احمد مختار العبادي، مراجعة-عبد العزيز الاهواني، ط-بغداد، ص١٦٣، هامش ١.
- ٥- نفسه ص٢٢١، هامش ١، الحميري، الروض ص٤٤، المدني، أحمد توفيق، كتاب الجزائر، ط-الجزائر، ١٣٥٠هـ، ص٢٠١-٢٠٣.
- ٦- كلمة سامية استعملها الفنيقيون والعبرانيون بمعنى الجدار، وهي في لغة البربر بمعنى الحصى، والأنبار هو المكان الذي يجمع وينفذ فيه الزرع والحبوب، راجع، الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج١ ص٢٤٧، هامش (١).
- ٧- الآية رقم (٧٧) من سورة الكهف.
- ٨- القزويني زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد، واخبار العباد، ط-دار صادر بيروت، د-ت، ص١٧٢.
- ٩- البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية... ص٧٦، م.م الاستبصار في عجائب الامصار، ت-سعد زغلول، ص١٧٦، الوزان، الحسن بن محمد، وصف افريقية، ت-عبد الرحمن حميدة، ط الرياض، ١٣٩٩هـ، ص٣٨٨، هامش (٢) بلقراد، دراسات الاصاله، ص٢٩٩-٣٠٠.

- ١٠- لسان الدين ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، ت-احسان-عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٣م، ص٣١، وعنه، راجع الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر، ج٢، ص١٥٩-١٦٠، وعن عين جارية، راجع المقرئ، احمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، ط-القاهرة، ١٣٠٢هـ، ج٨، ص١٥٦.
- ١١- ابن ابي زرع -علي الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط-الرباط، ١٩٧٢، ص٢١.
- ١٢- الاستبصار ص١٧٦، وما بعدها، الحميري، الروض، ص١٣٤-١٣٥، لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب، ص٢٢٠، هامش (١) ابن خلدون ابو زكريا يحيى بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ت-عبد الحميد حاجيات، ط-المكتبة الوطنية-الجزائر، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ج١، ص٩٠، ٩١.
- ١٣- الاستبصار، ص١٧٦، البكري، ذكر بلاد افريقية ص٧٦-٧٧، الحميري، الروض ص١٣٥.
- ١٤- البكري ذكر بلاد افريقية، ص٧٦ وما بعدها.
- ١٥- الاستبصار، ص١٧٦، من القبائل البربرية الضاربة حولها من الزناتيين بنو ومانوا وغيرهم من القبائل الأخرى مثل : بني بفراوه، ومغيلة، وكوميه، وبني منصوره، ومطغره، وبني يفرن، وودانه، وبني عبد الواد التي حكمت تلمسان راجع، البكري، ص٧٩، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ١٤٢، ١٤٣، أبو العباس أحمد بن الناصر، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ت-جعفر الناصري، ط-الدار البيضاء، المغرب ١٩٥٤م، ج٢، ص١٠٥-١٠٦.
- ١٦- ابو الفداء عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر، تقويم البلدان، ط-فاس، ١٨٤٠م ص١٣٧.
- ١٧- نقلها المقرئ على لسان الدين ابن الخطيب في كتابه نفح الطيب، راجع، المقرئ، ابو العباس شهاب الدين احمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، ط-دار الكتاب-بيروت، د-ت، ج٩، ص٣٤١.
- ١٨- ورد في النص كلمة ست عشرة، الصحيح ستة عشر، الوزان، وصف افريقية، ص٣٨٨.
- ١٩- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد.....، تاريخ ابن خلدون ط-دار العلم، بيروت، د-ت، ج٧، ص٧٧-٧٨.

- ٢٠- البكري، ذكر بلاد افريقية... ص ٧٦ وما بعدها.
- ٢١- ابن خلدون، يحيى، بغية الرواد، ... ص ٩٠.
- ٢٢- ابو الفداء التقيوم، ص ١٣٧.
- ٢٣- الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط-ليدن-بريل، ١٩٦٨، ص ٨٠.
- ٢٤- ابن عبد الله- عبد العزيز، من روائع الفن الأندلسي اللسان العربي، مج ٩، ج ١، الرباط ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م، ص ٢٨٤ وما بعدها.
- ٢٥- ابن خلدون-ابو زكريا يحيى، بغية الرواد، ج ١، ص ٢١٤.
- ٢٦- مفدي-زكريا، النشاط العقلي والتقدم بالجزائر في عهد الزيانيين، الأصالة س/٤، ع/٢٦، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص ١٦٤.
- ٢٧- ابن خلدون-محمد، تاريخه، ج ٧، ص ٧٨.
- ٢٨- الوزان، وصف افريقية، ص ٣٩٣.
- ٢٩- جولييان-اندري، تاريخ افريقيا الشمالية، تعريب-المزالي، وبشير سلامة، الدار التونسية للطباعة والنشر، تونس ١٩٧٨م ج ٢، ص ٢٠٩.
- ٣٠- ابن أبي زرع، ابو الحسن بن محمد بن أحمد بن عمر الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط حجرية، د-ت، ص ٧٠، السنوسي-محمد بن علي، الدرر السينية، في اخبار السلالة الادريسية، مخطوط خاص، ورقة (٤٥).
- ٣١- ابو اسحق ابراهيم بن يخلف التنسي، روى عن أبي علي ناصر الدين المشدالي ببجاية، ورحل الى المشرق، فآخذ المنطق والجدل والكلام وغير ذلك من العلوم، كان من الأولياء الصالحين، ابن خلدون، يحيى بغية الرواد، ت-حاجيات، ص ١١٤.
- ٣٢- بوروييه-رشيد، مساجد تلمسان، الاصاله س/٤، ع/٢٦، شعبان ١٣٩٥هـ/ جويليه ١٩٧٥م، ص ١٧٥.
- ٣٣- آية ٢٣٨ سورة البقرة.
- ٣٤- آية ١١٤ سورة هود
- ٣٥- ابن عبد الله-عبد العزيز، من روائع الفن...، اللسان العربي، مج ٩، ج ١، ص ٢٨٦-٢٨٤.
- ٣٦- آية ١٢٨ سورة الأعراف.
- ٣٧- بوروييه- رشيد، مساجد تلمسان الاصاله س/٤، ع/٢٦، ص ١٧٧-١٧٨.

- ٣٨- نفسه، ص ١٧٨.
- ٣٩- نفسه، ص ١٨١.
- ٤٠- البوعبدلي-المهدي، اهم الاحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ، الاصاله س/٤ . ع/٢٦، ص ١٢٦ وما بعدها، الجيلالي-عبد الرحمن محمد، تاريخ الجزائر العام، ط (٢) مكتبة الحياة-بيروت ١٣٨٥هـ/١٩٦٥، ج ٢، ص ٢٥١.
- ٤١- ابو الحسن الصغير، علي بن عبد الحق الزرويلي، فقيه وحافظ للحديث، كان مجلسه بفاس مزدحماً بالطلبة وكبار الفقهاء، ولي قضاء تازة على عهد السلطان أبي يعقوب يوسف المريني، ثم ولي قضاء فاس زمن حفيده السلطان أبي الربيع سليمان. كان لا يحابي في الحق أحداً، أقام الحد على سفير ابن الأحمر عندما شرب خمرأ أثناء زيارته للمغرب، فشكاه الى الوزير عبد الرحمان الوطاسي، وكادت أن تقع فتنة بينهما، لولا تراجع الوزير خوفاً من العامة.
- من مؤلفاته :- الدر النثير في النوازل والأحكام، وتقييد على المدونه في عدة مجلدات، عنه، راجع كنون عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط (٢) دار الكتاب اللبناني-بيروت سنة ١٩٦٠م، ج ١، ص ٢٠٤-٢٠٥ .
- ٤٢- الونشريسي، أحمد بن يحيى، المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء أفريقية والأندلس والمغرب، ط-حجرية-فاس ١٣١٣هـ=١٨٩٥م، ج ٢، ص ٣٨٥.
- ٤٣- كنون، النبوغ المغربي، ج ١، ص ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢، حاجيات عبد الحميد، الحياء الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان الأصالة، س/٤، ع/٢٦، شعبان ١٣٩٥هـ/١٩٧٥. عن التلمساني، راجع التازي-عبد الهادي، جامع القرويين، المسجد والجامعة بمدينة فاس، ط (١)-دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٣ مجلد ٢، ص ٤٣٠.
- ٤٤- مما يروى عن ملوك بني الواد، وبخاصة أبو حمو يغمراس، أنه كان يجلس على الحصير تواضعاً للعلم وإكراماً له، وكان يوقف الأوقاف الكثيرة على المدارس ويطعم الطلبة راجع، التنسي-محمد بن عبد الله، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان، ت-محمود بو عباد، الجزائر، ١٩٧٥م، ص ١٧٩.
- ٤٥- شهد عهد السلطان أبو تاشفين الأول الزياني تزويقاً في البناء المدرسي مثلما شهد عهد السلطان أبي الحسن المريني، الذي أمر ببناء المدرسة الجديدة بمكناس والتي عرفت بكثرة نفقاتها، وتعجب السلطان من هذا الإنفاق قبل أن يزورها، وعندما زارها أعجبه ببنائها،

- فأغرق كشف حسابها في صهريجها، وأنشد قائلاً :-
- لا بأس بالغالي إذا قيل حسن ليس لما تستحسن العين ثمن
وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على المباهاة في المؤسسات العلمية، وعلى الرخاء في كلا
البلدين فاس وتلمسان، راجع كنون، النبوغ، ج ١، ص ٢٠١.
- وعن المدرسة التاشفينية التي حطمها الإستعمار الفرنسي سنة ١٢٧٥هـ/١٨٥٩م، راجع،
الجيلالي-عبد الرحمن محمد، تاريخ الجزائر العام، ج ٢، ص ٣٥٣.
- ٤٦- هو أبو عبد الله الشوذري الأشبيلي المعروف بالحلوي، نزيل تلمسان، من كبار العباد
العارفين، وسمي بالحلوي لأنه كان يبيع حلوى للصبيان الصغار على طبق، راجع، ابن
خلدون-يحيى، بغية الرواد، ج ١، ص ١٢٧-١٢٨.
- ٤٧- يرى الكاتب الإسباني الفادير قومي AL Vare Gomes أن هذه المدرسة وغيرها من
المدارس في تلمسان ووهران شبيهة بمدارس إشبيلية وغرناطة من حيث الفن المعماري وما
يحيط بها من متنزهات، راجع الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج ٢، ص ٢٦٢.
- ٤٨- كنون النبوغ، ج ١، ص ١٩٢، الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج ٢، ص ٢٥١.
- ٤٩- الإمام محمد بن يوسف السنوسي، من أبرز علماء عصره في التفسير والعلوم الدينية
عامة، أخذ العلم عن والده وعن نصر الزواوي، وأبي الحجاج يوسف بن أحمد الشريف ألف
عدة كتب في التوحيد، تناولها عدد من العلماء بالشرح والتعليق منهم، أحمد بن الحاج
البيدري، تلميذ ابن زكري الذي ألف كتاباً سماه نظم عقيدة السنوسي الصغرى.
- من أبرز مؤلفات السنوسي، المقدمات المبينة للعقيدة الصغرى، وشرح عقيدة الحوفي، توفي
في جمادي الثانية سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م.
- ٥٠- حاجيات-عبد الحميد، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، الأصالة،
ص ١٣٧، ١٣٩.
- ٥١- كنون النبوغ، ج ١، ص ١٩٣.
- ٥٢- حاجيات الحياة الفكرية الأصالة، ص ١٣٧، ١٣٩، كنون، النبوغ، ج ١، ص ١٩٣.
- ٥٣- ابن البناء أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي، كان أبوه بناءً ولذلك
سمي بهذا الاسم، ولد بمراكش سنة ٦٥٤هـ/م وطلب العلم بها، ثم ارتحل عنها إلى فاس
وهناك درس العربية وأدائها وحذق بها وبالعلوم الشرعية، لكنه تفوق في العلوم الفلسفية
لا سيما الرياضية منها.
- ويلغ شأواً لا يدركه أحد في عصره في الهيئة والعدد، وله مؤلف به إسمه تلخيص ابن

البناء، توفي سنة ٧٢٦هـ/١٣٤٥م بمراكش. من مؤلفاته في التفسير، كتاب في تفسير سورة الكوثر. وآخر في تفسير سورة العصر، وفي تفسير الباء في البسملة وغيرها من الكتب الأخرى.

راجع كنون النبوغ، ج١ ص ٢١٣، ابن شقرون، محمد بن أحمد، مظاهر الثقافة المغربية من القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر، ط-الرباط- د-ت، ص ١٠٠ وما بعدها.

٥٤- ابن خلدون-يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك... مطبعة فونتاته، الجزائر ١٩١١م، ج٢، ص ٤٠

٥٥- برشك مدينة واقعة على البحر، وصفها ابن حوقل : «مدينة كان عليها سور فتهدم، ولها مياه جارية وآبار معين وبها فواكه حسنة غزيرة وسفرجل معنق كالقرع الصغار وهو طريف وأعناب الغالب على اهلها البربر...» راجع ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، كتاب صورة الارض، منشورات دار الحياة بيروت ١٩٧٩م، ص ٧٨.

٥٦- القاضي أبو يحيى محمد بن غالب بن أحمد بن علي العياضي المكني بابن السكاك، الفقيه الإمام المدرس المفتي المؤرخ له تأليف عدة منها كتاب (نصح ملوك الإسلام بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام) كان من المعجبين بابن العربي السفير، ويؤول كلامه، وهو ممن ضمتهم مجالس أبي عنان العلمية، راجع ابن الأحمر، أبو الوليد اسماعيل، روضة النسرين في دولة بني مرين، المطبعة الملكية الرباط، ١٩٦٢ ص ٣٧، هامش (٢)، التازي، عبد الهادي، جامع القرويين، ط-دار الكتاب اللبناني-بيروت، ط (١)، ١٩٧٣م، مجلد (٢)، ط ٢، ص ٥٠١.

٥٧- هو ابو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي التلمساني، أصل اجداده من مدينة آبله بالأندلس، ولد بتلمسان سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م، نشأ في كفالة جده القاضي ابن غليون، فشب على حب العلم، ودرس على أبي الحسن التنسي فحذق التعاليم، وقصد مكة لتأدية فريضة الحج. وجاب بعدها المشرق، ورجع الى تلمسان وعمل قهرمانا للسلطان أبي حمو يغمراس، ثم انتقل الى فاس وبعدها رحل الى تونس ثم عاد الى المغرب الأقصى واستقر بفاس لممارسة التدريس وتوفي سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م. عنه راجع، ابن خلدون بغية الرواد ت-حاجيات ص ١٧.

٥٨- أبو مدين شعيب، له شأن كبير عند التلمسانيين أصله من قطنيانة (cantillana) وهو حصن صغير في الشمال الشرقي من اشبيلية (seville) غادر الأندلس فارا من اخوته الذين استغلوا يتمه ليجعلوا منه (راعياً لمواشيهم) وقصد العدو طلباً للعلم فتوجه الى

مدينة فاس، وتجهول في بقاع المغرب الأقصى يأخذ العلم من العلماء، واصبح من كبار العلماء ومن أكثرهم منزلة بين الناس في عصره، وانتهى به الترحال ان يستقر في تلمسان، وبقي فيها الى ان توفاه الله، وصار التلمسانيون يتبركون بضريحه وقيمون المولد النبوي عنده، مثلما كان يتبرك الفاسيون بالمولى ادريس، والمراكشيون بأضرحة سبعة رجال، وقلما تجد داراً بوجودة لا تسمى طفلاً لها به (يحيى) وكذلك الحال قل من تجد بتازه من لا ينادي يا عزوز، للمزيد راجع الخلاصي، بومدين الغوث، الأصلة س/ع، ٤، ٢٦/ع وما بعدها، جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، ج٢، ص٢٠٨.

٥٩- ابو القاسم العبدوسي عبد العزيز بن موسى بن معطي الفاسي، أخذ العلم عن والده المتوفى سنة ٧٧٦هـ/٣٨٤م. وأخذ عنه اعيان علماء تونس، وعندما قدم الى تونس ارسل ابن مرزوق معه كتاباً يقول فيه :- "ورد عليكم حافظ المغرب" يقول عنه ابو عبد الله الزلديوي المتوفى سنة ٨٨١هـ/١٣٧٩م والذي كان يشغل قضاء تونس : "قلت لعل ذلك من تعميل الاخوان لاخوانهم في الوصية بهم، فلما اجتمعنا به، رأينا العجب العجاب ! لقد تركت مجلس تدريسي وحضرت عنده لأخذ شيئاً من طريقته ... " عنه راجع، التازي، جامع القرويين، ج٢، ص٥٠٣.

٦٠- حاجيات، الحياة الفكرية ... الأصلة، ص١٣٧ وما بعدها.

٦١- زبادة-عبد القادر، التلمساني محمد المغيلي، الأصلة، س/ع، ٤، ٢٦/ع، ص٢٠٣ وما بعدها، حاجيات، الأصلة ص١٤٨-١٤٩.

٦٢- حركات-ابراهيم، الصلات الفكرية بين تلمسان والمغرب، الأصلة، س/ع، ٤، ٢٦/ع، ١٣٩٥ / ١٩٧٥م، ص١٨٤ وما بعدها.

٦٣- موسى عمر باشا، العروبة في شعر العفيف التلمساني، الاصلة س/ع، ٤، ٢٦/ع، ص٣٤ وما بعدها، نقلاً عن مخطوطة لديه، لوحة (١ظ).

٦٤- المقرئ، نفخ الطيب... ج٩، ص٣٤١.

٦٥- ابن خلدون-يحيى، بغية الرواد، ط- فونتانة بالجزائر ١٩١١م ج٢، ص٤٠.

٦٦- التنسي، تاريخ بن زيان، ص١٦٢. ١٦٤، عد الملك -مرتاض، حركة الشعر المولدي في تلمسان على عهد حمو الثاني، الأصلة س/ع، ٤، ٢٦/ع. الجزائر ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ص٣١٤ وما بعدها، ابن خلدون-يحيى بغية الرواد-ت-حاجيات، ص٦٥.

٦٧- الجيلالي-عبد الرحمن، تاريخ الجزائر، ج٢، ص٢١٥-٢١٦.

- ٦٨- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج ٧، ص ٧٧، ٧٨، الوزاني وصف افريقية، ص ٣٩١، جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، ج ٢، ص ٢٠٨.
- ٦٩- العبدري، ابو عبد الله محمد الحيحي، رحلة العبدري، ت-محمد الفاسي، ط-الرباط ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ١١، ابو عياد-محمود، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، وقيمتة التوثيقية، الأصالة، ص ٢٦ وما بعدها، بلقراد، دراسات ادبية تلمسان. الأصالة س/٤، ع/٢٦، ص ٣٠٢.
- ٧٠- الجيلاني-عبد الرحمن، تلمسان والقدس الشريف، الأصالة، س/٤، ع/٢٦، الجزائر ١٩٧٥م، ص ٢٦٠ وما بعدها.
- ٧١- ابو الفدا-اسماعيل، تقويم البلدان، ط-الجزائر، ١٨٣٨، ص ٧٠.
- ٧٢- الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٧٢.
- ٧٣- نفسه، النزهة، ص ٨١ وما بعدها.
- ٧٤- المقرئ، نفخ الطيب، ط-القاهرة، ١٣٠٢ هـ ج ٢، ص ١١٠-١١١.
- ٧٥- الادريسي، النزهة ص ٨١ وما بعدها.
- ٧٦- يلحميسي -مولاي، نهاية دولة بني زيان، الأصالة، س/٤، ع/٢٦، الجزائر ١٩٧٥م، ص ٦٤.
- ٧٧- استغل التلمسانيون المياه لري البساتين وادارة الطواحين المحيطة والمتجهة الى شرقها منها، طواحين القمح الواقعة على نهر سفسيف، وطواحين لأغراض أخرى تقع على سفوح جبل القلعة باتجاه الجنوب، راجع، الحميري، الروض، ص ١٣٥، الوزان وصف افريقية، ص ٣٩١، مصطفى -رشيد، تلمسان في الأدب العربي، الأصالة س/٤، ع/٢٦، الجزائر ١٩٧٥م، ص ٣٥٧.
- ٧٨- السيلوي، ابو العباس احمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ط-دار الكتاب، الدار البيضاء، سنة ١٩٥٤، ج ٣، ص ٨٥-٨٦.
- ٧٩- أبو جعفر الداودي من أهل العلم والعمل به، وضريحه خارج باب العقبة، وقد نقش على رخامه فوق رأسه تاريخ وفاته، عنه، راجع، ابن خلدون-يحيى، بغية الرواد، ج ١، ص ١٢٧.
- ٨٠- ابن خلدون -محمد، تاريخه، ط-بيروت، ج ٧، ص ٧٨، الوزان، وصف افريقية، ص ٣٩١ وما بعدها، جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، ج ٢، ص ٢٠٨ وما بعدها.
- ٨١- مشاهدات الباحث.